"بالمختصر مع المغامسي "

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبيه الأمين .
أما بعد ، فقد شاهدت لقاء الشيخ المغامسي قبل أسبوع ، ووجدت في كلامه ما لا يصلح السكوت معه ، ولست ممن يحب المداخلة في الفضائيات ، بل ولا حتى الظهور فيها لحظة واحدة ، ولهذا كتبت هذه المداخلات ، وجعلتها مختصرة ، لتطابق اسم البرنامج (بالمختصر) .
1 - عوّدنا الشيخ ، وفقه الله ، على طرح الغرائب ، بيد أنه كان يأتي بها فرادى ، وجاء بها هاهنا مجتمعةً متراكمة .
فقد بدا من أول حديثه مضطرباً ، كأنه لا يدري ما يقول ، ولا كيف يبدأ ، فأخذ يخلط في الكلام ، ويسوق جملاً مفككة ، أشبه بما يعرف اليوم بالكلمات والحروف المتقاطعة ، التي تحتاج إلى ما يملأ فراغاتها ، ويلُمّ شَعَثها ، حتى يفهم المعنى والمغزى منها .
فقد استشهد بكلام يلمز فيه فقهاء الأمة اليوم ، خاصةً كبار علماء بلدنا ، بأنهم لم يخطئوا في الفتاوى فحسب ، ولا في الجزئيات الفقهية ، بل في الكليات أيضاً !
وحام كلامه حول معنى :
أن العلماء لجهلهم بأصول الدين ، ومقاصد الشرع ، وقواعد الفقه والاستنباط ، فقد نتج عنهم ذلك الطرح الفقهي الهزيل .
فجاء المغامسي ليصحح لهم المسار ، ويوضح للأمة ، ذلك الخلل الذي لم يفطن له أحد قبله !
وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ
لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ
واستلّ من جعبة ثقافته كلاماً للزركشي من كتاب البحر المحيط (سماه الشيخ القاموس المحيط)!
ونصه " فجاء المتأخرون فضيقوا واسعاً ، وأبعدوا شاسعاً " .
ثم عقب عليه بأن الناس صاروا يفيؤون إلى تلك الفتاوى (التي صدرت من كبار العلماء ذوي السطوة) لا إلى فقه السابقين !
ومداخلتي هنا مع فضيلته هي :
ماهي الكليات (الأصول والقواعد) التي أغفلها ، أو جهلها ، العلماء ، والتي بسببها شذّتْ فتاواهم ؟
وماهي الجزئيات التي ضيقوا بها واسعاً وأبعدوا بها شاسعاً ، عن فقه السلف ؟
أما الكليات ، فلا ريب عندي وعند كل من يفقه نَزْراً من العلم ، أنهم لم يخرجوا عنها ، قِيدَ أُنملة .
وأما الجزئيات ، فلا نعرف فتوى لأحد منهم ، خرجت عن مذاهب من سبقهم من السلف .
وأطلب من المغامسي أن يأتي بفتوى واحدة ، صدرت من هيئة كبار العلماء ، خالفوا فيها إجماع السلف ، أو شذوا فيها عن أقوالهم ومذاهبهم .
2 - ذكر الشيخ ، هداه الله ، أن مقام العلماء محفوظ ، ولكن حفظ الدين أعظم من حفظ الأشخاص !
ومداخلتي هنا :
ومن قال لك : إن حفظ أشخاص الناس ، مهما بلغوا من الفضل والمكانة والعلم ، أعظم من حفظ الدين ؟
لقد عاتب الله في كتابه ، من أجل حفظ الدين ، بعض أنبيائه ، ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .
فمن دونهم من الخلق أولى بأن لا تقدم أشخاصهم ولا أفعالهم على حفظ الدين .

لكن هذا التأصيل ، لا مكان لذكره هنا ، لأنك لم تذكر مسألة واحدة حتى الآن ، خالف فيها المشايخ الكبار دين الله وشرعه ، إلا أنك مُولَعٌ بالتهويل والنفخ في العبارات ، لتوهم المستمع أنك أحرص من العلماء والمفتين الكبار ، على حفظ الدين ومقاصد الشريعة !
وهذا اللمز الصريح منك ، لا يُعَمّيه ولا يخفف منه ، كَيْلك المديح ، وإظهار احترامك وتقديرك لهم ، فالعقلاء يفهمون فحوى الكلام ، ولحن المقال . ويعلمون ، أنك أنت من " ضيق واسعاً وأبعد شاسعاً " .
3 - ذكر الشيخ ، في معرض لمزه للعلماء أيضاً ، أنه " لابد من إعادة النظر في طرائق استنباط الفتوى " .
ثم ذكر مثالاً عجيباً لذلك فقال :
قُدّس في علم الحديث السند أكثر من اللازم ، فصار يحكم على المتن بمجرد صحة السند ، دون النظر في موافقة المتن للقرآن ، ولا موافقته لمقاصد الشريعة ، ولا النظر في الأحاديث التي تقوي هذا المتن وتشفع له .
ومداخلتي للشيخ هنا في عدة محاور :
أولاً : ما دخل طرائق الاستنباط الفقهي بقضية نقد السند والمتن في علم الحديث ؟
لقد كشف لنا الشيخ هاهنا عن مدى فهمه لأصول الفقه والحديث معاً .
فمسألة تصحيح الأحاديث ونقدها ، ليست من طرق الاستنباط ، بل هي علم مستقل ، يرجع فيه إلى نقد أئمة الجرح والتعديل ، وسواء حكموا بصحة الحديث أم بضعفه ، فلا دخل لذلك في طرق استنباط الفتوى منه .
ثانياً : من قال لك يا فضيلة الشيخ : إن الحديث لابد من عرضه على القرآن حتى يحكم بصحته ؟
هذه مقالة أهل البدع والزيغ ، وقد شنع علماء السنة على قائليها منذ القرون الأولى .
وقد تتابعت كل مصنفات أصول الفقه منذ رسالة الشافعي ، على إنكار هذه المقالة الفاسدة .
ومما استدلوا به على نقضها قوله تعالى { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا } .
وقوله صلى الله عليه وسلم " ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه " .
ويذكرون أمثلة كثيرة على انفراد السنة بأحكام لم يذكرها القرآن .
والعجب أن الزركشي نفسه ، الذي ابتدأ الشيخ بكلامه ، قد ذكر في نفس الكتاب " البحر المحيط " مسألة : السنة المستقلة بتشريع الأحكام .
وساق كلام الشافعي وغيره في تكذيب مقالة (وجوب عرض الحديث على الكتاب) !
فكيف يقرر الشيخ المغامسي مقالة أهل البدع ، ويخالف جماهير علماء السلف والخلف ، ثم ينعي على الأكابر أنهم لم يفعلوا مثله ؟
ثالثاً : ومن قال لك يا فضيلة الشيخ إن الحديث لا يصح حتى يشفع له ويعضده غيره من الأحاديث ؟
أما قرأت ما قرره أئمة الإسلام ، وسطروه في كتب الحديث والفقه وأصوله ، من الاحتجاج بالحديث الصحيح ، ولو لم يعضده غيره ؟
وأظنك يا شيخ بعيد العهد عن هذه المسألة ، فسألخصها لك :
الحديث إذا لم يسنده إلا راوٍ واحد ، يسمى في الاصطلاح " الغريب " ، وربما سمي " الفرد " .
وأعلى منه العزيز والمشهور ، وكلها تندرج تحت خبر الأحاد ، الذي يقابله المتواتر .
وحكم الحديث الغريب القبول ، إن كان المتفرد به ثقةً ضابطاً ، ولم يخالفه مثله أو أعلى منه .
وذكروا من أمثلته حديث " إنما الأعمال بالنيات " . وهو متفق عليه .

والاحتجاج بخبر الواحد (الغريب وما فوقه) هو مذهب السلف ، ولم ينكره إلا أهل البدع من المعتزلة ومن تابعهم .
والشافعي قد أطال في تقرير مذهب السلف في حجية خبر الواحد في كتاب الرسالة ، ونقل عنه ذلك من صنف في الأصول ، ومنهم الزركشي في البحر (وليس القاموس) المحيط !
وفي الصحاح والسنن عدد من الأحاديث الغريبة التي صححها الأئمة .
رابعاً : ثم ما علاقة ذلك كله بفتاوى علمائنا الكبار ؟
هل عندك فتوى واحدة اعتمدوا فيها على حديث صحيح السند ، شاذ المتن مخالف للقرآن ، أو لمقاصد الشرع ؟
أم هو مجرد فذلكة ، وثرثرة كمضغ الماء ؟
ثم أقول : ألست أنت يا شيخ ، قد سبق وأن اجترأت على مخالفة القول المشهور الذي اختاره الجمهور ، من السلف والخلف ، ضارباً بعرض الحائط النصوص الواضحة الصريحة ، والقواعد الكلية التي اتفق عليها السابقون ، وسار على نهجها اللاحقون ؟
والأمثلة في ذلك كثيرة ، ومنها :
إشهارك القول : أن الذبيح هو إسحق ، وليس إسماعيل ، عليهما السلام ، والجمهور على خلاف ذلك ، بل حتى العوام ، وصغار طلبة المدارس ، يعلمون أنه إسماعيل ، وليس إسحق .
وزعمت بأن كل الفرق الباطنية ، ومنها الإسماعيلية ، مسلمون ، واعترفت بأنك قد تفردت عن العلماء في هذا الحكم !
مع إجماع العلماء على تكفيرهم ، على وجه الإطلاق ، وحكوا ذلك في مصنفاتهم ، حتى قالوا : من شك في كفرهم فهو كافر !
وإن كان للمعين والجاهل حكمه المعروف في مثيلاته .
وزعمت في تفسير قوله تعالى { وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب } بأن معناها : دوران الجبال ، لأن العلم الحديث أثبت دوران الأرض !
مع أنك تعلم يقيناً أن السلف فسروها بما سيحصل يوم القيامة من تسيير الجبال ، وصيرورتها هباءً منبثاً ، كالعهن المنفوش ، كما دلت عليه نصوص القرآن الأخرى .
وتدل عليه الآية السابقة لها { ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض } .
والآية اللاحقة { من جاء بالحسنة فله خير منها } .
فدلالتهما على المعنى صريحة ، وأنه من مشاهد يوم القيامة .
وليس في تقرير دوران الجبال مع الأرض أدنى ارتباط بنفخة الصور والفزع ، ولا بمجيء الناس بالحسنات يوم الحساب .
فضربت بأصول التفسير كلها عرض الحائط .
فتفسير القرآن بالقرآن ، وبالسنة ، وبأقوال الصحابة والتابعين ، كلها تدل على ذلك المعنى الذي طرحته ، ورجحت عليه قولاً شاذاً منكراً ، لا دليل عليه .
وحتى لو فرضنا صحة ما يزعمه بعض المعاصرين من دوران الأرض ، فإن دلالة الآية على ذلك المعنى بوصف الجبال بأنها تمر مر السحاب ، مخالف للسياق ، ومخالف للعقل .
لأن القرآن قد ذكر الأرض ، وفَصّل الكلام على خلقها وتكوينها ، في مواضع كثيرة ، وما أشار إلى دورانها في موضع واحد .

فهل يعقل أن يسند الدوران إلى الفرع (الجبال) ويغفل الأصل (الأرض) ، ويكون ذلك في سياق مشهد يوم القيامة ؟
وزعمك أن الموسيقى العسكرية لا تدخل في النهي الوارد في حديث المعازف !
من أين أتيت بهذا الفقه العجيب ؟
لو قلت إن المعازف حلال ، كما قاله غيرك ، لضعف إسناد الحديث ، أو لضعف دلالته على التحريم ، أو لوجود ما يعارضه ، كما قال بعض أهل العلم ، لعذرناك في اختيارك .
لكنك حين اخترت المخالفة والمناكدة للفتوى السائدة من كبار المفتين ، سلفاً وخلفاً ، أبيت إلا الشذوذ في التعليل !
4 - وأعجب ما ذكره الشيخ بعد تلكم المقدمة المتخبطة ، اقتراحه على مقدم البرنامج بأن يعاد تأسيس المدارس الفقهية والشرعية بطريقة حديثة ، لأن الطرق القديمة لا تصلح ، فهي مجرد تلقين وحفظ من دون فهم ولا بصيرة .
ومداخلتي هنا : هل يصلح عرض مثل هذا الاقتراح الخطير في مثل هذا البرنامج ، وطرحه على الجمهور ؟
ما شأنهم بمثل هذا الاقتراح ، الذي هو من صميم اختصاص العلماء ، والذي لا يصلح عرضه إلا عليهم ، أو على من بيده عقدة الأمر ؟
وهل يصلح من الفقيه بمقاصد الشرع ، أن يقترح مثل هذا المشروع العبقري ، الذي سيغير حال الأمة ، ويطرحه على الجماهير ، من خلال برنامج أعرج في قناة معوجة ، لا تقيم للملة ولا لمقاصد الشريعة وزناً ؟
ثم نسأل هذا المقترح : هل بدأت أنت في تطبيق مثل هذا البرنامج العلمي في دروسك ، أم لازلت على المنهج القديم ، منهج السطوة والتلقين ؟
5 - وذكر الشيخ بعد ذلك مسألتين مما زعم أن فتوى العلماء الكبار فيهما قد جانبت الاعتدال ، وهما :
فرض النقاب على النساء .
ومنعهن من زيارة القبور .
ومداخلتي معه هنا : أليس هناك من قال بهما من أئمة السلف والخلف ، أم هما من الفتاوى الشاذة ؟
فإن كان الجواب هو الأول ، فما يضير العلماء إن أفتوا بما ليس بشاذ ، وبما وافقوا فيه أئمةً وعلماء سابقين .
وأما لمزك المشايخ لأنهم لم يحكوا الخلاف فيهما ، فهذا لأن مقام الفتيا للعوام ، ليس كمقام الدرس الخاص لطلبة العلم .
ولم يقل أحد ممن سبق من أهل العلم ، إن على المفتي أن يحكي الأقوال والخلاف للمستفتي .
بل قالوا وفعلوا عكس ذلك .
وهذه نصوص السلف من عصر الصحابة حتى يومنا هذا ، هل فيها أن المفتي أو العالم ، كان يسرد المذاهب والأقوال لمن يستفتيه ؟
وأقول : هب أننا اخترنا القول الآخر في المسألتين ، فهل ننكر أن يختار العلماء مذهباً معتبراً غير شاذ ، ولو كان مرجوحاً ، لأنه أقرب لمقاصد الشريعة ، وأحوط للدين والعفاف .
أو لسنا قد رأينا ما أحدثه السفور وزيارة النساء للقبور في بلاد الإسلام الأخرى من فتن ورزايا ؟
أو لست تعلم يا شيخ أن للمفتي والمجتهد أن يختار المذهب المرجوح ، سياسةً ، إن رأى أن ذلك أحفظ لضرورات الدين ؟

وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها " لو رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء ، لمنعهن من المساجد .." .
ثم إنك تعلم أن ولاة الأمر عندنا قد وافقوا فتوى العلماء في ذلك .
وتعلم أن اختيار ولاة الأمر لمذهب ، ولو كان مرجوحاً ، يرفع الخلاف .
فعلامَ الافتئات على ولاة الأمر ؟
6 - وذكر الشيخ في معرض كلامه أنه سبق له السفر خارج البلاد ، ومكث نحو أسبوعين ، وأنه شعر بالحنين ، فتعجل للرجوع فوراً إلى المدينة .
لكنه كعادته في الإغراب ، فما أن سمعته يذكر الحنين ، ويذكر حزنه ورقة قلبه ، فيسارع بالرجوع ، حتى ظننت أنه سيذكر الحنين إلى المدينة النبوية ، أو إلى مكة ، مهبط الوحي ، ومأرز الإيمان !
فإذا هو يصدمك من جديد ، بأن حنينه ورقته كانا من أجل فقده لدرس التفسير الذي كان يلقيه في المسجد !
ولا تعليق !!
7 - وكعادته كذلك في الإغراب ، واختيار الشاذ من الرأي والممجوج من القول ، تفضيله أحمد شوقي على المتنبي ، ولم يكتفِ بالتفضيل بالضعف ، بل جعله ألف ضعف !
وهذا أقرب إلى الهذيان منه إلى العلم .
ولو قُدّر أن شوقي كان حياً ، لمجّ هذا القول .
وإن تعجب ، فعجبٌ تعليله لذلك التفضيل الشاسع .
فذكر أن شوقي متأخر عن المتنبي ، والمتأخر قد حاز علوماً لم يدركها المتقدم ، كذا قال !!
ومعلوم قطعاً أن هذا لا يتأتى في علوم العربية والشعر ولا في علوم الدين ، بل قد يصلح في علوم التجربة ، كالرياضيات والطب ونحوها .
والعقلاء مجمعون أنه كلما تباعد الزمان عن العصر الأول ، نقصت علوم اللغة والشعر ، ومن ثمّ جعلوا للاحتجاج بالشعر في اللغة فترةً زمنية لا تتجاوز ال 400 سنة هجرية ، مع التفريق بين البادية والحاضرة .
ثم ثناؤه على شعر نزار القباني ، وإعجابه به ، فإنه مع تصريحه بالكفر والمجون في شعره (والذي أقرّ الشيخ به) ، فلا يعد من فحول شعراء العصر الحديث ، بل شعره ركيك ، ولغته العربية سوقية ملحونة ، يعرف هذا كل من يحسن نقد الأدب ، وقرأ شعر نزار ، إلا الشيخ المغامسي !
وبعد ، فقد جهدت في اختصار المداخلة والتعقيب على كلام الشيخ ، وما استوفيت الذي في جعبتي من كلام .
ولعل فيما ذكرته كافياً لكشف حال هذا المتعاظم ، الذي يرى في نفسه أنه أهل للتنظير والاستدراك على الكبراء .
وأكرر ما قلته له من قبل ، في ردي السابق عليه " نصيحة إلى الشيخ المغامسي " ، وأقول هنا :
ارفق بنفسك يا أخي ، فلا تتطلع إلى منصب الإفتاء ، فقد كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، يتدافعون الفتيا ، وأنت تتقحمها .
ولا تناطح الجبال ، ولا تتعالى على من هو أرفع منك ، وارضَ بما قسم الله لك من علم ومنصب وجاه ومنزلة ، ولا تستشرف لبلوغ درجة يقصر عنها علمك ، ويعجز عن إدراكها عقلك ، فالله عز وجل قد قسم العقول والمدارك والأفهام بين الأنام ، وكلٌ ميسرٌ لما خلق له .

وحسبك أن تسرد في مجالسك التأريخ والشعر والقصص ، وتنثر نُتَفاً من مختلف المسائل ، لتستميل بها العوام ، وتصرف بها وجوه الناس إليك !
وأما الفتيا في الدين ، والفقه وأصوله ومقاصده ، فلا أظنك أهل له .
وقد جربناك في طرح بعض المسائل السهلة اليسيرة ، فوجدناك لا تحسن فيها إلا التشغيب ، واختيار الشاذ والغريب .
{ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين } .

وكتب / سمير بن خليل المالكي الحسني
مكة المكرمة 25 / 1 / 1440 هـ .